جهود الشيخ أحمد زرّوق في نشر المذهب المالكيّ من خلال كتابه: "مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي، لابن عسكر"

أ: إمحمد عبد السلام دعبوش/جامعة المرقب

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإنّ من أجلِّ النعم وأعظمها، أن أرسل الله تعالى أفضل الأنبياء وأكرم الخلق، محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- إلى هذه الأمّة خاصّة، وإلى الناس كافّة، فكان رحمة للناس، علّمهم كلّ خير، وحذّرهم من كلّ شر، ربَّى صحابته تربية إسلاميّة، فكانوا للأحكام فاهمين، وللهدى متّبعين، وكان مرجعهم الكتاب والسنّة يستنبطون منهما الأحكام، ويرجعون إليهما عند التنازع، وهم بذلك قد خلّفوا كمًّا هائلاً من الأحكام الشرعيّة استنبطوها من هذين المصدرين.

ولما كانت معرفة هذه الأحكام من أدلّتها التفصيلية من اختصاصات علم الفقه، ولا يمكن الوصول إليها إلاَّ عن طريقه، فكان للفقه من الأهمّيّة بمكان، وقد حثَّ الله ـ سبحانه- وتعالى ـ على التفقُّه في الدِّين فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]، وقال -صلّى الله عليه وسلّم-: "من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدِّين"[2]، فالفقه خير كلّه، حيث إنّه الطريق لمعرفة الدين الذي نتعبّد الله تعالى به، وقد أنعم الله تعالى على هذه الأمّة الكريمة؛ بأن قيّض لها نخبة ممتازة وصفوة مختارة، نذرت أعمارها لخدمة هذا الدين الحنيف، وشمّرت عن ساعد الجد، فخلّفت لهذه الأمّة كمًّا هائلاً من المؤلّفات الفقهيّة على مرّ السنين، وتنوّعت أساليبهم في هذه المصنّفات.

ومن هؤلاء الصفوة الشيخ أحمد زرّوق -رحمه الله- أحد المحققين الجامعين للحقيقة والشرع[3]، خلّف ميراثًا كبيرًا من المؤلفات والرسائل في مختلف فنون الفقه والحديث

(1) سورة التوبة، الآية (123).

(2) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، (24/1) ، مسلم في الصحيح، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، (718/2).

(3) ينظر الفكر السامي (264/2).

والتصوف، ومن هذه المؤلفات: مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي. الذي هو دراسة موضوع هذا البحث.

وسبب اختياري لهذا الموضوع: القيمة العلميّة الجليلة لكتاب السداد الفهمي المتمثلة في سوق الأدلّة الشرعية على المسائل الفقهيّة، مع سهولة في العبارة، ودقّة في التوضيح، والمكانة المرموقة التي يتحلّى بها الشيخ زرّوق.

- إبراز هذا الكتاب -المختصر مع الشرح- وإظهاره؛ لأنّه لم يحظ باهتمام الدارسين والبحّاث.

وأهمية البحث تكمن في:

- كتاب الإرشاد لابن عسكر حوى كلّ أبواب الفقه من العبادات والمعاملات والجنايات. ممّا جعل شرح الشيخ زرّوق عليه موسوعة علميّة، ومرجعًا للفقهاء يستقون منه وينقلون عنه كالحطّاب والسنهوري والحضيري في شروحهم لمختصر خليل.
- تسليط الضوء على كتابين من أهمّ كتب المالكيّة هما: الإرشاد لابن عسكر، وشرحه مفتاح السداد الفهمي للشيخ زرّوق.
- إبراز قيمة المختصرات العلميّة وجودة إقبال الشروح عليها.

أهداف البحث:

لقد رأيت أنّ دراسة كتاب مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي تحقّق جملا من الأهداف والفوائد منها:

- الوقوف على الآليات والطرق والمنهجيّة التي اعتمد عليها الشيخ زرّوق في شرحه لكتاب الإرشاد.
- إظهار مدى تجرُّد الشارح للدليل الشرعي، وعدم تعصّبه للمذهب الذي انتسب إليه.
- توضيح اختيارات الشيخ زروق، واستدلالاته التي اعتمد عليها.
- بيان أهميّة النقل والأمانة عند الشيخ زروق في هذا الشرح.
- تحديد اعتراضات الشيخ زرّوق في شرحه على مختصر ابن عسكر(الإرشاد).

إشكالية البحث:

أولاً: مشكلة البحث:

يرى الباحث أن الإشكاليّة في هذا البحث يمكن حصرها من خلال طرح التساؤلات الآتية:

أسئلة البحث:

1- ماهي الضوابط المعتمدة في شرح الإرشاد، متمثّلة في اللغة من حيث السهولة، واعتماد الدليل، والنقد؟

2 - ماهي المنهجيّة التي سار عليها الشيخ زروق في شرحه؟

3 - ما مدى دقّة المصطلحات التي نبّه عليها الشيخ زرّوق في مقدّمة كتابه والتزامه بها؟

4 - ماهي المسائل الفقهيّة التي اختارها الشيخ زرّوق ورجّحها في كتابه؟

5- هل المسائل الفقهية التي اختارها الشيخ زرّوق في أبواب الكتاب لها أثر في القضايا المعاصرة؟

منهجية البحث:

تتلخّص المنهجيّة البحثيّة التي سلكتها في إعداد هذا البحث في **المنهج الاستقرائي** القائم على التّتبع لأبواب كتاب شرح الإرشاد، **والمنهج التحليلي** القائم على تحليل وتوجيه أقوال الشيخ زرّوق في كتابه، **والمنهج التطبيقي** القائم على إيراد التطبيقات.

خطة البحث:

وقد جاءت خطة البحث، في مقدّمة، ومبحثين، على النحو التالي:

المبحث الأول: في التعريف بالشيخ، وذلك بذكر الآتي:

المطلب الأول: اسمه، ومولده، ولقبه، ونشأته.

المطلب الثاني: مسيرته العلميّة والتعليميّة.

المطلب الثالث: شيوخه، وتلاميذه

المطلب الرابع: آثاره العلميّة، وثناء العلماء عليه.

المبحث الثاني: في التعريف بكتاب مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي. ومنهج الشيخ في شرحه، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: كتاب (مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي) وقيمته العلميّة.

المطلب الثاني: منهج المؤلّف واصطلاحاته.

المطلب الثالث: ترجيحات المؤلّف واختياراته.

المطلب الرابع: مصادره التي اعتمد عليها في النقولات.

المطلب الخامس: تقييم الكتاب.

جعلت في نهاية البحث خاتمة، ذكرت فيها أهمّ النتائج التي توصّلت إليها من خلال هذا البحث وكذلك وضع فهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للمحتويات.

والله أسأله التوفيق والسداد، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: في التعريف بالشيخ، وذلك بذكر الآتي:

المطلب الأول: اسمه، ومولده، ولقبه، ونشأته[1].

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن عيسى البرنسي نسبًا وقبيلةً، الفاسي مولدًا ونشأة المصراتي دارا ومستقرًّا. اشتهر بزرّوق، وهو أحد كبار فقهاء الصوفيّة المشهورين في العالم الإسلامي[2].

مولده: ولد الشيخ زروق -رحمه الله- يوم الخميس22/محرم/846هـ الموافق1442/6/7م، ومكان ولادته بقرية (فاس) بالمغرب[3].

لقبه:

(زروق) قال الشيخ: إنما جاءني من جهة الجد، فقد كان أزرق العينين، واكتسب ذلك من أمه.

(1) تنبيه: لن أطيل في ترجمة الشيخ زروق؛ لأنها في كتب التراجم غنية، ولب البحث في المبحث الثاني.

(2) ينظر شذرات الذهب (363/7)، نيل الابتهاج (130)، شجرة النور (276/1).

(3) ينظر الكناش للشيخ زروق (11).

نشأته:

عاش الشيخ زرّوق يتيما في كنف جدّته لأبيه، فكفلته وربّته تربية حسنة، وكانت تكنى أم البنين واسمها فاطمة، وهي ذات صلاح ودين، يقول الشيخ زروق في ترجمته[1] لنفسه: وعلمتني الصلاة وأمرتني بها، وأدخلتني الكُتّاب، وكانت تعلمني التوحيد، والتوكل، والإخلاص، وتحدّثني بحديث الصالحين والأولياء، وتقصّ علي سيرة النبيﷺ، وكانت تردّد على مسامعه: "لابد من تعلّم القراءة للدين، والصناعة للمعاش".

سيرة الشيخ زرّوق بين أقرانه في الكُتّاب كان تلميذا هادئا مهذبا مواظبا على الدرس، لا كعادة الأطفال من الكسل والسفه، وعدم الاهتمام بمذاكرة الدروس، وكان له أقارب من الأسرة يعينون الجدة على تربيته والاهتمام به، والحرص على تلّقيه أصول السلوك، وطرق التصرّف في الحياة والمجتمع.

أتمّ حفظ القرآن قبل أن يبلغ العاشرة من عمره، وبعد وفاة جدته كان لزاما عليه أن يشتغل ويتكسّب لدنياه ومعاشه، وأخذًا لنصيحتها فامتهن صناعة الخرازة فترة من الزمن ثمّ تركها.

المطلب الثاني: مسيرته العلمية والتعليمية.

بدأ حياته العلميّة وهو في سنّ السادسة عشرة، فقرأ رسالة ابن أبي زيد على الشيخين علي السطي وعبد الله الفخار قراءة بحث وتحقيق، وقرأ بعضًا من كتب العقيدة على الشيخ عبد الرحمن المجدولي وهو من تلاميذ الآبي، وسمع منه البخاري، وتفقه عليه في الأحكام الصغرى لعبد الحق، وجامع الترمذي[2].

التحق بالمدرسة العنانيّة لطلب العلم وقصد جامع القرويين بفاس، فدرس بعض أمهات كتب الفقه المالكي، وعلوم القرآن، والحديث والتوحيد والتصوف، والعربية.

بعد سنوات من طلب العلم بمدينة فاس بالمغرب تاقت نفسه إلى الالتقاء بعلماء المشرق، فغادرها قاصدا أداء فريضة الحج، وفي الطريق التقى كثيرا من فقهاء تونس

(1) المصدر السابق (13،14).

(2) ينظر نيل الابتهاج (131).

والقيروان، وطرابلس، حتى وصل القاهرة فخالط مشاهير علمائها في ذلك العصر، وعند رجوعه من الحج أقام بمصر عاما تتلمذ على كثير من الشيوخ في الفقه والحديث والتصوف.

ومن الكتب التي قرأها في الحديث والفقه:

- رسالة ابن أبي زيد.
- شمائل الترمذي.
- الأحكام الصغرى لعبد الحق الإشبيلي.
- صحيح البخاري.
- المدخل لابن الحاج.

وقرأ في التصوف:

- الرسالة القشيرية.
- إحياء علوم الدين.
- قوت القلوب.
- الحكم العطائية.
- لطائف المنن.

وفي سنة(877هـ) غادر الشيخ زروق مصر متوجهًا إلى المغرب، ولم يستقرّ بها لجفوة حصلت بينه وبين علمائها، فغادرها إلى مصر مرّة ثانية، وعقدت له الدروس، فكان يحضر حلقته زهاء ستّة آلاف طالب، وجدّد صلته بمشايخه وعلى رأسهم العلاّمة عبد الرحمن السخاوي، وأبو العباس الحضرمي(1).

وبعد هذا كلّه غادر الشيخ زرّوق مصر متوجها نحو ليبيا، واستقر به المقام بمدينة أوجلة لعدّة أيام، ثم غادرها إلى مدينة مصراتة، وألقى عصا التسيار فيها، ولقي من أهلها كلّ تقدير واحترام وعطف حنان واجتمع حوله الناس للاستفادة من علمه

---

(1) ينظر عدة المريد الصادق لزروق (8) ، دوحة الناشر للشفشاوني(49) ، ذكريات مشاهير رجال المغرب لكنون(19).

وتوجيهاته، وأسس بها زاوية مباركة تؤتي أكلها إلى يومنا هذا، ولم يزل بهذه المدينة يدرّس ويفتي ويعلّم ويؤلّف، وداعية إلى الخير والإصلاح، متمسّكا بالسنّة قولا وعملا واعتقادا إلى أن توفّاه الله في صفر سنة(899هـ) عن عمر يناهز الأربعة والخمسين عاما[1].

المطلب الثالث: شيوخه، وتلاميذه.

أولاً: شيوخه:

كما أسلفنا آنفا أنّ نشأة الشيخ زروق بفاس التي كانت قبلة العلماء وطلبة العلم، وكثرة رحلاته العلمية أمران هيئّا له لقاء كثير من الشيوخ والأخذ والتتلمذ عليهم.

فمن شيوخه المغاربة:

- أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي ت (849ه).
- أحمد بن محمد الفشتالي ت (856ه).
- أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم المشذالي ت (866ه).
- إبراهيم بن محمد بن علي التازي ت (866ه).

ومن شيوخه المشارقة:

- شمس الدين الجوجري ت(889هـ).
- نور الدين السنهوري ت (889هـ).
- محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت (902هـ).
- أحمد بن عقبة الحضرمي ت (895هـ).

ثانيًا: تلاميذه:

أخذ العلم عن الشيخ زرّوق الجمّ الغفير من طلبة العلم من مصر وليبيا وفاس بالمغرب، ومن أشهرهم:

- شمس الدين اللقاني ت (935هـ).

---

(1) ينظر نيل الابتهاج (132).

- ناصر الدين اللقاني ت (958هـ).
- محمد بن عبد الرحمن الرعيني المشهور بالحطّاب، صاحب كتّاب مواهب الجليل شرح مختصر خليل ت (945ه).
- عبد الوهاب الشعراني ت (973هـ)[1].

المطلب الرابع: آثاره العلمية، وثناء العلماء عليه.

أولاً: آثاره العلمية:

ذكر الباحث فيما سبق؛ أنّ الشيخ زرّوق كان يقضي جلّ وقته في التدريس والتأليف، فلا غرابة أن تكون له غزارة مؤلفات، بعضها يحوي مجلّدات، وبعضها عبارة عن كتب ورسائل صغيرة، من أهمها:

- تفسير للقرآن الكريم.
- شرح القرطبيّة.
- شرح مواضع من مختصر خليل.
- شرح الحكم العطائيّة.
- قواعد التصوف.
- عدة المريد الصادق.
- تعليق على مواضع من صحيح البخاري.
- حاشية على صحيح مسلم.
- شرح الأربعين حديثًا.
- شرح أسماء الله الحسنى.
- الأنس في شرح عيوب النفس.
- الأصول في الفصول.

ثانيًا: ثناء العلماء عليه:

(1) ينظر أحمد زروق، آراؤه الإصلاحية (73)، الضوء اللامع (103/2)، نيل الابتهاج (568) شذرات الذهب(59/8)، شجرة النور(270). توشيح الديباج للقرافي (201).

أثنى العلماء على الشيخ زرّوق، ووصفوه بأنّه من أهل العلم، والعمل، والزهد، والجِدّ، والمثابرة، وجيّد التصانيف، وصفه أقرانه، وشيوخه، وتلاميذه، وإليك نبذًا منها:

قال عنه ابن غلبون في التذكار(1): "كان زاهدا فاضلاً، منقطعا إلى الله، عارفا به دالًّا عليه، له همّة عالية، تخرّج عليه جماعة، وانتفع الناس به شرقًا وغربا".

وقال عنه الحجوي: "كان من الطبقة العالية في المؤلّفين، بل والمصنفين والمرشدين، ذابًّا عن السنّة قوّالا للحقّ، وهو آخر المحقّقين الجامعين بين الفقه والتصوّف"(2).

وقال عنه صاحب نيل الابتهاج(3): "وبالجملة فقدره فوق ما يذكر، ومن تفرّغ فذكر حاله وفوائده وحكمه ورسائله جمع منها مجلّدًا، وهو آخر أئمة الصوفيّة الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة".

ومن يرى بعين الإنصاف والحقيقة يستطع أن يقول أنّ التربية الحسنة، والبيئة التي نشأ فيها الشيخ زرّوق كانتا وراء هذه المكانة التي تبوّأها زرّوق بين علماء عصره. فرحم الله الشيخ زرّوق وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

المبحث الثاني: في التعريف بكتاب مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي. ومنهج الشيخ في شرحه، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: كتاب (مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي) وقيمته العلمية.

يعتبر كتاب الشيخ زروق "مفتاح السداد الفهمي شرح كتاب الإرشاد الفقهي" من أنفع الكتب التي كان لها الأثر الكبير في أن يكون لهذا الشرح قيمة علمية، وذلك لما تتضمّنه هذه النقاط:

- كتاب شرح الإرشاد تناول جميع أبواب الفقه، من عبادات ومعاملات وجنايات بالشرح والتوضيح الأمر الذي جعله مرجعًا لجميع الدارسين.

---

(1) (171).

(2) الفكر السامي (264/2).

(3) (112).

- انتهج الشيخ زروق في شرحه عبارة سهلة ميسّرة، وأسلوبًا بديعًا محكما، هجر فيه التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ركّز في شرحه على أهمّ المسائل والفروع الفقهيّة.
- جمع الكتاب أقوال الفقهاء المتقدّمين والمتأخّرين، مبيّنا ما اشتهر منها.
- احتجاجه بأدلّة الشرع من القرآن والسنة، منبّها على صحّة الحديث وضعفه، مسندا له، ممّا يعين الدارس على الرجوع إليها في مظانها.

فهذه النقاط وغيرها جعلت من هذا الكتاب قيمة علميّة لدى الفقهاء المتأخّرين، فأصبح مرجعًا لهم يستقون منه في كتبهم، ويستشهدون به، وينقلون عنه، منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ الحطّاب في كتابه مواهب الجليل(1)، فقد نقل عن الشيخ زروق من كتابه شرح الإرشاد أكثر من مائة نقل. وكذلك الشيخ الزرقاني عند شرحه لمختصر خليل(2)، نقل عنه في مواضع كثيرة، وأيضًا الخرشي عند شرحه للمختصر(3)، والعدوي في شرحه كفاية الطالب الرباني(4)، والدسوقي في حاشيته على الشرح الكبير للدردير(5)، والشيخ عليش في فتح العلي المالك(6)، والشيخ الكشناوي في كتابه أسهل المسالك(7)، وغيرهم كثير، فهؤلاء الفقهاء الأجلّاء نقلوا واستشهدوا بكتاب شرح الإرشاد لما رأوا فيه من قيمة علمية تلقّاها الفقهاء وطلبة العلم بالقبول والاهتمام.

المطلب الثاني: منهج المؤلف واصطلاحاته.

أولاً: منهجه:

- من خلال النظر والبحث في كتاب شرح الإرشاد تبيَّن لي ما يلي:

---

(1) ينظر (373/1، 415، 499، 502)، (132/2، 153، 163، 169، 191)، (132/3، 143، 147، 166)، (417/5)، (116/6، 154، 414).

(2) ينظر (258/2)، (314/3).

(3) ينظر (110/3)، (134/6).

(4) ينظر (473/1، 523، 528).

(5) ينظر (234/1).

(6) ينظر (171/1).

(7) ينظر (155/1، 190).

1 -يبتدئ الشيخ زروق بإيراد نصّ ابن عسكر المراد شرحه، وإن كانت فيه أكثر من رواية نصّ عليها، ثم يذكر غالبا المشهور في المذهب. ومن ذلك:

قال ابن عسكر في الإرشاد: "**والإقامة آكد، فيقيم القاضي والمنفرد، ويوتر كلماتها إلا التكبير**[1]".

يقول الشيخ زروق شارحًا: "يعني أنّ الإقامة آكد في الحكم من الأذان؛ لأنّها للفذ والجماعة، وقال ابن كنانة وغيره: من تركها عمدًا بطلت صلاته، **والمشهور خلافه** كالساهي عنها[2]".

2 - كثيرًا ما يستدرك على ابن عسكر في "الإرشاد" وينتقده في بعض المواضع بقلم علمي سيّال نقدًا بنَّاءًا ينمّ عن قبوله للرأي المخالف، يعتذر للمصنّف قوله أحيانا، ويرجّح قوله أحايين أخرى بعبارات العالم القدوة السمح، لا فظاظة في القول ولا تعنيف، فنراه يكثر من عبارت ملؤها اللطف والتهذيب كقوله: "لم يستوعب الشروط"، "فالمذهب أنّه ليس بواجب"، "المشهور خلافه"، "وما ذكره خلاف المشهور"، "وقوله المشهور والظاهر نفيه"، "وكون الأشهر كذا، لم أقف عليه لغيره"، "وهذا لم أقف عليه لغيره".

وأحيانا يكون نقده له في جانب الأسلوب والصياغة فيقول مثلاً: "ولو اكتفى بكذا لكان له وجه"، "فحكى المصنف قولين وهي ثلاثة"، "وظاهر كلامه كذا والمعتبر كذا"، "وما ذكره هنا أوجه"، "وظاهر كلامه كذا فتأمّله"، "وقد ذكر كذا ولم يذكر كذا".

وقد نصّ على ذلك عند قول ابن عسكر: "**بشرط إمكان متابعة المشي به، وستره محلّ الفرض، ولبسه بعد كمال الطهارة بالماء**" بقوله: ذكر فيه شروط المسح ولم يستوعبها[3].

3 - يشرح المصطلحات الفقهيّة شرحا لغويًّا، ويستشهد على ذلك بكتب اللغويين أمثال الخليل بن أحمد والجوهري[4].

---

(1) الإرشاد لابن عسكر (13).

(2) شرح الإرشاد (275/1).

(3) المصدر السابق (216/1)، وينظر (1/ 155، 238).

(4) ينظر شرح الإرشاد (71/1، 256).

4 - يشرح النص مبيّنا ما فيه من أقوال داخل المذهب غالبًا، وأحيانا ينصّ على الخلاف خارج المذهب.

وقد نص على ذلك عند قول ابن عسكر: "**ويجب الإنصات لها**" فقال: "الإنصات في خطبة الجمعة واجب على كلّ من شهدها، سمعها أو لم يسمعها، قال الباجي: وبه قال أبو حنيفة"(1).

5 - يعزو الأقوال إلى أصحابها غالبًا؛ لأنّ الشيخ زرّوق اعتمد جانب النقل في شرحه لمختصر ابن عسكر فقال في خطبة شرح الإرشاد: " وقد أضربت في ذلك عن البحث والتأصيل، واعتمدت جانب النقل والتحصيل؛ لكونه أسلم من الاعتراض، وأقرب لتناول الأغراض"(2).

6 - اعتمد الشيخ زروق في شرحه على النقل من كتب متأخّري المذهب؛ لما تميّزت به من جمع للأقوال، وتحرير للمسائل والفروع، وفي هذا يقول: "واعتمدت غيره؛ لكونه أخصر أو أوفر ككتّاب شيخنا الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي على ابن الحاجب؛ لكونه صحيح النقل، معتبر اللفظ دون الأصل وكذا القاضي أبو العباس أحمد القلشاني على الرسالة؛ لأنه المتيسر عندي في الوقت مع صحّة نقله غالبا وكثرة فروعه، وربّما ذكرت نصّ الرسالة مع وجوده في المدونة؛ لقرب التناول، وسهولة النظر في المسألة بعينها"(3).

7 - التوسّط في عرض المسائل والفروع الفقهية، حيث إن هذه السمة تكاد لا تخلو منها مسألة ذكرها في شرحه، وشرح المختصرات الفقهيّة صناعة لا يستطيعها إلا أهل العلم الكبار؛ لأنّ المختصرات كالألغاز يراد فكّها، فما بالك إذا كان الشرح مختصرا ومتوسّطا كشرح الإرشاد للشيخ زروق، فإنّه يراعي في هذا الشرح دقّة العبارة، وجودة السبك، وحسن تنسيقه بين الروايات، وتجنّب التكرار، والاقتصار على الشاهد في استدلالاته، وعدم التوسّع في إيراد الفروع الفقهيّة.

(1) ينظر المصدر السابق (448/1، 89، 113، 120، 140، 172، 175).
(2) المصدر السابق (44/1).
(3) المصدر السابق (44/1).

8 - يستشهد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وغالبا ما يقوم بتخريج الحديث، ويحكم عليه بالصحة والضعف، فنراه قد استدل بأحاديث في الصحيحين، وفي السنن، وفي غيرها من كتب الحديث[1]. وقد نص على ذلك عند قول المصنف: "**المسكرات والميتات كلها نجسة إلا دواب الماء**" بقوله: "ودواب الماء كلها طاهرة حية وميتة لقوله عليه الصلاة والسلام: هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته" خرّجه مالك وغيره"[2].

9 - استشهاده بالقواعد الفقهية أحيانا كقاعدة انقلاب الأعيان، سد الذرائع، مراعاة الخلاف، من ملك أن يملك. وقد نصّ على ذلك عند قول ابن عسكر: "**وفي مائع ينجس، ولا يطهر بغسله**"[3]. بقوله: "واستخف بعض المتأخرين الخبز بزبل للضرورة، ورعيا للخلاف في انقلاب الأعيان"[4].

10 - كثيرا ما كان يطرح الشيخ زروق في عرضه للمسائل الفقهية تساؤلاً ثم يجيب عنه، وهذا أسلوب علميّ تربوي رصين من لفت النظر وجذب الانتباه، وهذا الأسلوب ليس غريبا عن مربٍّ وعالم مثل الشيخ زرّوق -رحمه الله-.

ثانيًا: اصطلاحاته:

ذكر الشيخ زروق في شرح الإرشاد مصطلحات لم يشر إليها في بداية كتابه لا تصريحاً ولا تلميحًا، وهي عبارة عن ذكر بعض الرموز على هيئة حروف أبجديّة.

1 - **(ص)**: يشير به إلى المصنّف، أو نصّ الإرشاد.

2 -**(ش)**: ويشير به إلى الشارح أو شرح النصّ.

3 - **(خ)**: يشير به إلى الشيخ خليل.

4 - **(س)**: يشير به إلى ابن عبد السلام.

5 - **(ع)**: يشير به إلى ابن عرفة.

6 - **(م)**: يشير به إلى بهرام الدميري.

وكذلك يذكر بعض الفقهاء بشهرتهم، أو بكناهم. مما يوجب اللبس من خلال تشابه

(1) ينظر شرح الإرشاد (2/ 498، 444، 464، 302، 500).

(2) المصدر السابق(89/1).

(3) الإرشاد (5).

(4) ينظر شرح الإرشاد (114/1).

الألقاب أو الأسماء ويبين الباحث بعض هذا المصطلحات:

1 - **القاضي:** ويراد به القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي.

2 - **الشيخ:** ويراد به ابن أبي زيد، أو الشيخ خليل، والسياق هو الذي يحدّد المقصود.

3 - **محمد: ويراد** به ابن المواز.

4 - **علي:** ويراد به ابن زياد.

5 - **عيسى:** ويراد به ابن دينار.

6 - **الجلاب:** ويراد به كتاب التفريع لابن الجلاب.

7 - **المدوّنة، فيها:** ويراد بهما مدوّنة سحنون، أو تهذيب البراذعي.

المطلب الثالث: ترجيحات المؤلف واختياراته:

من خلال تتبّعي لكتاب شرح الإرشاد للشيخ زروق تبين للباحث أنّ الشيخ لا يرجّح بين أقوال الفقهاء إلّا نادرًا، والسبب في ذلك -والله أعلم- أنّ الشيخ يكثر ويذكر جميع أقوال الفقهاء في المسألة، ثم يذكر المشهور في معظم المسائل التي تناولها بالشرح، فكأنّه لا يريد أن يخالف ما اشتهر بين الأئمة من ترجيح يخالف ما اشتهر بينهم، ولم أظفر بترجيح للشيخ إلّا في مواضع قليلة. واصطلاحاته في الترجيح: "وهذا أقرب للفهم وأونس للنفس"، "وهو الصحيح". مثال ذلك عند قول ابن عسكر في الإرشاد(1): "**ومس الذّكر بباطن الكف والأصابع**" ذكر أقوال الفقهاء في المسألة ثم استدل بقول النبي ﷺ: "من مسّ ذكره فليتوضأ" وعلّق عليه بأنّه أصل الباب مستشهدا بقول البخاري: "أصحّ شيء في الباب" ثم قال: "فأعمله الشافعي على إطلاقه، وقيّده مالك بما يمسّ مسًّا... وأخذ أبو حنيفة بحديث طلق بن علي رضي الله عنه قلت: الرجل يمسّ ذكره هل عليه وضوء؟ قال: لا، وهل هو إلا بضعة منك"، ثم قال الشيخ زروق: وقال ابن المديني: "هو أصحّ من حديث بسرة" المتقدّم. ثم نقل عن العراقيين أنهم جمعوا بين الحديثين بقولهم: إذا استوى مع سائر البضع في الإحساس كان له حكمها، وإذا وجد منه مالم يوجد منها فليس كذلك، فيكون له حكم

(1) (7).

يخصه، فاعتبروا اللذة. يقول الشيخ زرّوق: وهذا أقرب للفهم وأونس للنفس[1].

ومن أمثلة ترجيحه واختياره أيضًا: عند قول ابن عسكر في الإرشاد[2]: "**فيباع الجنس بطيب بعضه ولو في أصل واحد إن كان متلاحقا، لابطيب مبْكَرَة**" فذكر قول ابن أبي زيد في الرسالة: "ويجوز بيعه إذا بدا صلاح بعضه، وإن نخلة من نخيل كثيرة" ثم قال: والصحيح: أنّ اتّحاد الملك لا يعتبر في ذلك، ولا يعطي المُبْكَرَ حكم المتلاحق، ولا غير الجنس حكم غيره فيه"[3].

المطلب الرابع: مصادره التي اعتمد عليها في النقولات:

بما أنّ الشيخ زرّوق أكثر من النقل والاقتباس؛ فيلزم من ذلك أن تكون مصادره كثيرة، ونقولاته غالبا ما تكون عن مؤلفات متأخّري المذهب؛ لما احتوته من جمع للأقوال، وتحرير للمسائل والفروع، مع اعتماده في شرحه على أقوال إمام المذهب، فجعلها أساس نقله، ثم أقوال أكابر أصحابه وتلاميذه، ثم أقوال من جاء بعدهم من فقهاء المالكيّة المتقدّمين والمتأخّرين.

إنّ المتأملَّ في كتاب شرح الإرشاد وكثرة نقولاته، ليعرف مدى اتّساع معرفة الشيخ زروق بالكتب واطلاعه عليها، فهو عند الاستدلال يستدل بأمهات الكتب في كل الفنون، وأحيانا يذكرها بأسمائها، وأخرى بذكر مؤلفيها، باقة كبيرة جمعها في كتابه، مما أعطى هذا الكتاب قيمة علمية رفيعة، والباحث بصدد ترجمة أهمّ المصادر، وترتيبها، مع الإشارة لمكان ورودها.

أولاً: القرآن الكريم[4].

ثانيًا: الحديث الشريف، ويشمل الآتي:

1 - الموطأ: للإمام مالك بن أنس (ت197هـ)[5].

---

(1) ينظر شرح الإرشاد (176/1).

(2) (84).

(3) ينظر شرح الإرشاد (116/3).

(4) انظر: زروق، شرح الإرشاد (309/1).

(5) انظر: زروق، شرح الإرشاد (159/1)، (412/2)، (490/2).

2 - صحيح البخاري: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ) [1].

3 - صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت261هـ) [2].

4 - سنن أبي داود: للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني (ت275هـ) [3].

5 - سنن الترمذي: للإمام محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت279هـ) [4].

6 - سنن النسائي: للإمام أحمد بن شعيب بن علي النَّسائي (ت303هـ) [5]

7- الاستذكار للإمام يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت463هـ) [6].

8 - المعلم بفوائد مسلم: للإمام محمد بن علي بن عمر المازري (ت536هـ) [7].

9 - عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي: للإمام القاضي أبي بكر بن العربي (ت543هـ) [8].

10- إكمال المعلم بفوائد مسلم: للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت544هـ) [9].

ثالثا: الفقه:

1 - مختصر ابن عبد الحكم: للإمام عبد الله بن الحكم بن أعين (ت214هـ) [10].

2 - الواضحة في السنن والفقه: للإمام عبد الملك بن حبيب السلمي (ت238هـ) [11].

3 - المدونة: وهي عبارة عن سماعات الإمام مالك، سمعها منه سحنون التنوخي (ت240هـ) [12].

---

(1) انظر زروق، شرح الإرشاد (35/3)، (50/3)، (54/3).

(2) انظر: زروق، شرح الإرشاد (185/1)، (444/2)، (55/3).

(3) انظر: زروق، شرح الإرشاد (132/1)، (196/1).

(4) انظر: زروق، شرح الإرشاد (123/1)، (132/1)، (196/1).

(5) انظر: زروق، شرح الإرشاد (40/3).

(6) انظر: زروق، شرح الإرشاد (200/1).

(7) انظر: زروق، شرح الإرشاد (479/2).

(8) انظر: زروق، شرح الإرشاد (162/1)، (203/1)، (447/2).

(9) انظر: زروق، شرح الإرشاد (92/1)، (296/2)، (409/2).

(10) انظر: زروق، شرح الإرشاد (314/2)، (404/2).

(11) انظر: زروق، شرح الإرشاد (340/2)، (394/2).

(12) انظر: زروق، شرح الإرشاد (278/1)، (415/2).

4 - العتبية: للإمام محمد بن أحمد العتبي (ت255هـ) [1].

5 - المجموعة: للإمام محمد بن إبراهيم بن عبدوس (ت260هـ) [2].

6 - الموازية: للإمام محمد بن إبراهيم المواز(ت269هـ) [3].

7 - المبسوط: للقاضي إسماعيل بن إسحاق (ت282هـ) [4].

8 - التفريع: للإمام عبيد الله بن الحسن بن الجلاب (ت378هـ) [5].

9 - الرسالة: للإمام ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ) [6].

10 - النوادر والزيادات: لابن أبي زيد[7].

11 - التلقين: للقاضي عبد الوهاب البغدادي (ت422هـ) [8].

12 - المعونة: للقاضي عبد الوهاب[9].

13 - الإشراف على نكت مسائل الخلاف: للقاضي عبد الوهاب[10].

14 - تهذيب المدونة: للإمام خلف بن أبي القاسم البرادعي (ت438هـ) [11].

15 - الكافي في فقه المدينة: للإمام ابن عبد البر(ت463هـ) [12].

16 - النكث والفروق: للإمام بن هارون الضقلي (ت466هـ) [13].

17 - المقدمات الممهدات: للإمام أبي الوليد ابن رشد (ت520هـ) [14].

---

(1) انظر: زروق، شرح الإرشاد (127/1)، (364/2).

(2) انظر: زروق، شرح الإرشاد (334/2)، (364/2).

(3) انظر: زروق، شرح الإرشاد (243/1).

(4) انظر: زروق، شرح الإرشاد (291/1)، (488/2).

(5) انظر: زروق، شرح الإرشاد (312/2)، (473/2).

(6) انظر: زروق، شرح الإرشاد (19/1)، (416/2).

(7) انظر: زروق، شرح الإرشاد (385/2)، (479/2).

(8) انظر: زروق، شرح الإرشاد (217/1)، (375/2).

(9) انظر: زروق، شرح الإرشاد (13/1).

(10) انظر: زروق، شرح الإرشاد (2445).

(11) انظر: زروق، شرح الإرشاد (262/1)، (420/2).

(12) انظر: زروق، شرح الإرشاد (330/2)، (362/2).

(13) انظر: زروق، شرح الإرشاد (178/1)، (389/2).

(14) انظر: زروق، شرح الإرشاد (165/1)، (435/2).

18 - البيان والتحصيل: لابن رشد (ت590هـ) [1].

19 -شرح التلقين: للإمام محمد بن علي المازري (ت536هـ) [2].

20 - التنبيهات: للقاضي عياض (ت544هـ) [3].

21 - الذخيرة: للإمام القرافي (ت684هـ) [4].

22 - التنبيه لابن بشير (ت526هـ) [5].

23 - التوضيح للشيخ خليل (ت767هـ) [6].

24 - الزاهي لابن شعبان (ت355هـ) [7].

المطلب الخامس: تقييم الكتاب:

بعد هذه الرحلة العطرة بين دفّتي كتاب شرح الإرشاد، يودّ الباحث أن يذكر ما رآه في حق هذا الكتاب الفريد، من مزايا تميّز بها عن غيره:

1 - النقل من المصادر الأصليّة.

2 - عزو الأقوال لأصحابها غالبا، والدقّة في النقول.

3 - سهولة الأسلوب، ووضوح العبارة.

4 - ظهور شخصية المؤلف، من خلال تعقّباته لابن عسكر، وهذ السمة تكاد تكون منعدمة عند بعض المؤلفين.

5 - يعتبر مرجعًا لدى طلبة العلم في الفقه المالكي.

---

(1) انظر: زروق، شرح الإرشاد (95/1)، (290/2).

(2) انظر: زروق، شرح الإرشاد (191/1).

(3) انظر: زروق، شرح الإرشاد (301/2).

(4) انظر: زروق، شرح الإرشاد (131/1)، (340/2).

(5) انظر: زروق، شرح الإرشاد (186/1).

(6) انظر: زروق، شرح الإرشاد (186/1).

(7) انظر: زروق، شرح الإرشاد (303/2)، (352/2).

ملحوظات على كتاب الإرشاد:

1 - التركيز على ذكر أقوال فقهاء المالكيّة؛ أي: داخل المذهب، وعدم الخروج على نطاق المذهب إلّا في بعض المسائل.

2 - عدم الاهتمام بذكر أسباب الاختلاف.

3 - عدم ربط المسائل والفروع الفقهيّة بالقواعد الفقهيّة.

4 - عدم الالتزام بمنهج معين في ذكره للكتب ومؤلّفيها.

5 - عند سرده للأقوال لا يذكر القول الراجح غالبًا.

وأخيرًا بعد هذا التطواف مع كتاب الشيخ زروق أجد نفسي مع قامة من قامات الفقه المالكيّ الأجلاء الذين وهبهم الله قدرة على استيعاب آراء الآخرين، ومرونة في التعامل، يصحب ذلك سعة الأفق، وعمق فهم وكثرة اطلاع، بعيدا عن التعصّب للرأي، مع نظرة نقديّة فاحصة تكشف عن أمانة علميّة، وحريّة في التفكير.

الخاتمة:

بعد **هذا** التجوال الطويل في أمهات مصنّفات الفقه الإسلامي، وبعد هذا الجهد المتواضع يتعيّن على الباحث إجمال تلك النتائج التي استنتجها من خلال هذه الدراسة.

أولاً: لقد يسّر المولى ـ عز وجل ـ أن يعيش الباحث في رحاب فقيه من فقهاء المسلمين، كان له دور بارز في إثراء الفقه الإسلامي عامّة، والفقه المالكي خاصّة، فقيه قضى عمره في الجهاد في طلب العلم والمعرفة حتّ صار من كبار فقهاء **المالكيّة**، المعوّل عليهم، فكثر تلاميذه، واستبقوا نحوه لأخذ العلم بين يديه، كما ألّف مصنفات أفاد بها الإسلام والمسلمين، ونهج في تصنيفها منهجاً مميّزاً يمتاز بالدقة والشموليّة، الأمر الذي جعل منها مرجعاً أساسياً مهمّاً في الفقه المالكيّ المدلّل، نظراً لشمولها معظم المسائل والأحكام الفقهيّة في عبارة موجزة وأسلوب سلس، واحتوائها الاستدلالات على فروع ومسائل المذهب المالكيّ، وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلُّ على براعة الشيخ زرّوق الفائقة، وعلى ملكته الفقهيّة، وإحاطته بكتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ـ ﷺ ـ وهي اليوم محطّ أقلام الباحثين، ومثار أبحاثهم واهتماماتهم.

ثانيًا: حاول الباحث في المبحث الأوّل من هذا البحث إبراز شخصيّة الشيخ زرّوق؛

من مولده، ونشأته وطلبه للعلم، وتلاميذه، **وشيوخه**، وثناء العلماء عليه، ومكانته بين العلماء، ومؤلّفاته، وكذلك الحديث عن مؤلّفه "شرح الإرشاد" وأهميّته، وثناء العلماء **عليه، ومكانته بين الشروح، ومصادره.**

ثالثًا: في المبحث الثاني، وهو لُبّ البحث (دراسة كتاب الإرشاد) استنتج الباحث ما يلي:

أ - في معظم المسائل الفقهية التي وردت في الشرح يتّضح أنّ الشيخ زرّوق غالبًا ما يوافق إمام مذهبه وأحيانا يوافق مذهب الجمهور.

ب - الملكة النقديّة عند الشيخ زرّوق، تتمثّل في نقده لبعض الأقوال وتضعيفها، وكذلك في نقده لعبارة ابن عسكر، فكثيرا ما يعقّب على نصّ ابن عسكر بقوله: لو قال كذا لكان أحسن.

ج - روح اليسر موافقًا للشريعة في شرح كتابه.

د - قبول الشيخ زرّوق للرأي الآخر، مما يثري حريّة الفكر، وتبادل الأفكار.

وأخيراً ورغم هذا الجهد المبذول فإنّي لا أدّعي الاستقصاء والاستيفاء، وإنّما هذا كلّه بحسب ما اقتضاه جهدي القاصر، وفهمي الفاتر، اللذان يستحيا من تسميتهما جهداً وفهماً، وحسبي أنّي لم أدَّخر وسعاً في دراسة كتاب مهم من كتب الفقه الإسلامي، وما توفيقي إلّا بالله، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع

- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 1089هـ، دار الكتب العلمية بيروت، ط، بلا.
- ابن فرحون، إبراهيم بن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون الجنان ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1996م).
- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط2 (طرابلس: دار الكاتب، 2000م).

- إدريس عزوزي، الشيخ أحمد زروق وآراؤه الإصلاحية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب1998م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، ط1 (بيروت: دار طوق النجاة، 1422ه).
- الحجوي، محمد بن الحسن الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995م).
- السخاوي، شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط1 (بيروت: دار الجيل، 1992م).
- الشيخ زروق، الكناش، تـ د، علي فهمي خشيم، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان.
- الشيخ زروق، عدة المريد الصادق، تـ: الشيخ الصادق الغرياني، مكتبة طرابلس العلمية، ط1، 1996م.
- النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، د. ط (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).
- بدر الدين القرافي، توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تـ: أحمد الشتيوي، دار الغرب الإسلامي ط 1 1983م.
- شهاب الدين ابن عسكر، الإرشاد، دار الفكر للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان.
- كنون، ذكريات مشاهير المغرب، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، ط، بلا.
- محمد بن غلبون الطرابلسي، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تعليق الشيخ الطاهر الزاوي، المطبعة السلفية، ط، بلا، 1349ه.
- محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، دار الفكر، ط، بلا، ت، بلا.
- مسعود حامد بشر، رسالة علمية في شرح الإرشاد، جامعة المرقب.
- مصطفى محمد المعرش، رسالة علمية في شرح الإرشاد، جامعة المرقب.